عنوان المحاضرة الأولى: بدايات الرواية

الأستاذة: خالص زهرة

إن الرواية هي الفن الأدبي الذي لم يمض على ظهوره أنثر من ثلاثة قرون في العالم الغربي، ولا أكثر من قرن ونصف في العالم العربي. والرواية هي الجنس الأدبي القادر على الهضم والتمثل والإفادة من الفنون الأخرى، وقد وصفه نجيب محفوظ بالفن الذي يوفق ما بين شغف الإنسان الحديث بالحقائق وحنينه الدائم إلى الخيال، وكذا ما بين غنى الحقيقة وجموح الخيال.

لم تتحقق الرواية باعتبارها جنسا أدبيا استقلالها وتميزها بوجودها وشكلها الخاص في الأدب الغربي والعربي إلا في العصر الحديث، حيث ارتبط مصطلح الرواية بظهور وسيطرة الطبقة الوسطى في المجتمع الأوروبي. فحلت هذه الطبقة محل الاقطاع الذي تميز أفراده بالمحافظة والمثالية، وعلى العكس من ذلك فقد اهتمت الطبقة البرجوازية بالواقع والمغامرات الفردية، وصور الأدب هذه الأمور المستحدثة بشكل حديث اصطلح الأدباء على تسميته ب"الرواية الفنية" في حين اطلقوا اسم "الرواية غير الفنية" على المراحل السابقة لهذا العصر. فالسمة البارزة للرواية الفنية انكبابها على الواقع، وعليه فالرواية تبدأ في أوروبا منذ القرن الثامن عشر الميلادي حاملة رسالة جديدة هي التعبير عن روح العصر، والحديث عن خصائص الإنسان. وهناك من يعتبر رواية "دون كيشوت" ل "ميغال دي سرفانتيس" ، أول رواية فنية في أوروبا كونها تعتمد على المغامرة والفردية. إذن فالرواية وليدة الطبقة البرجوازية، وهي البديل عن الملحمة ولذلك اعتبر "هيغل" الرواية ملحمة العصر الحديث.

بدأت الرواية في ظروف اجتماعية وتاريخية حتمت ظهورها، فالطبقة الوسطى برزت وعلى يديها تهاوت صروح الإقطاع، فكان لابد من أدب يخدم المرحلة الجديدة ولأن الطبقة الوسطى تعلي من شأن الفرد (البطل) فقد كانت الرواية –التي تقوم على مفهوم البطل– النوع الأدبي الملائم لهذا الوضع الاجتماعي والتاريخي الجديد، ولقد كان تطور الرواية في القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين ميلادي مطابقا لتطور البرجوازية، وقد ربط "هيغل" بين ظهور الرواية وتطور المجتمع البرجوازي وذلك في إطار بحثه عن الخصائص النوعية للشكل الروائي وعلاقتها بالشكل الملحمي البائد وبالمجتمع البرجوازي الحديث.

والرواية نوع أدبي غربي كباقي الأنواع وهي متطورة عن الملحمة ولذلك ترددت عبارات كثيرة تؤكد صلة الرواية بالملحمة مع وجود بعض الفوارق بينهما.

فالرواية سليلة الملاحم الكلاسيكية، وهي تعالج الكثير من المواضيع التي تغذي الملاحم، من الصراع بين الأفراد والمجتمعات إلى البطولة والشهامة والخيانة ... ولكن الفرق بين الملحمة والرواية يكمن في أن معظم الملاحم والمآسي تدور حول الملوك والأمراء في حين أن أبطال الرواية يكونون أناسا عاديين، ولهذا يمكن القول أن الرواية قد ظهرت كردة فعل ضد الملحمة، وقصص الخرافات التي عرفتها القرون الوسطى في أوروبا، التي كانت تنزع عن الإنسان مقوماته وقدراته لتنسبها إلى غيبيات وبطل أسطوري وهمي خرافي.

وقد ظهرت الرواية باعتبارها أكثر نظم التمثيل اللغوية قدرة في العالم الحديث من حيث إمكاناتها في إعادة تشكيل المرجعيات الواقعية، والثقافية وإدراجها في السياقات النصية، ومن حيث إمكانياتها في خلق عوالم متخيلة توهم المتلقي بأنها نظيرة العوالم الحقيقية، ولكنها تقوم دائما بتمزيقها وإعادة تركيبها بما يوافق حاجاتها الفنية، دون أن تتخلى–في الوقت نفسه– عن وظيفتها التمثيلية، وبهذه الميزة تكون الرواية قد تخطت أزمة الأنواع الأدبية القديمة، التي كانت تسعى إلى تثبيت أركان العوالم التي تحيل عليها، وتكون أمينة في التعبير عن قيمتها الثقافية، بما يجعلها تندرج في علاقة محاكاة لها وقد يفسر هذا جانبا

من الحيوية والتجدد الذين تتصف بهما الرواية التي لم تقرن نفسها بحقيقة مطلقة. وعلى هذا فالرواية أقامت رهاناتها على العلاقات التفاعلية والتواصلية بين العوالم الخارجية والعوالم النصية وذلك على سبيل التمثيل السردي، الأمر الذي جعلها نوعا متجددا له القدرة على إعادة النظر في كل ما يتصل بالوسائل التي يستعين بها.

-المراجع:

-محمد هادي مرادي وآخرون، لمحة عن ظهور الرواية العربية وتطورها، مجلة دراسات الأدب المعاصر، ع:16

-مفقودة صالح، المرأة في الرواية الجزائرية، ط2، دار الشروق للطباعة والنشر، 2009م.

-إبراهيم خليل، في نظرية الأدب وعلم النص، ط1، الدار العربية للعلوم، 2010م.

-حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ط2، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2009م.

-أسماء أحمد معيكل، الأصالة والتغريب في الرواية العربية، ط1، عالم الكتاب الحديث، 2011م.

-أمينة يوسف، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، دار الحوار، 1985م.

-عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة، المركز الثقافي العربي،2003م